من

سير أعلام الشهداء

٣٧

الشيخ
أبو أنس الشّامي

بسم الله الرحمن الرحيم

[الشّيخ أبو أنس الشّامي]

عَلَمٌ من أعلام الإسلام، لا تحويه السّطور، ولا لشرفه وفضله تُسعفني الكلمات، ولقد تردّدت كثيراً قبل الكتابة عن هذا الأسد وأخّرت االكتابة عنه لعل غيري يكون أصدق تعبيراً وأسعف بياناً، وعلم الله أنّ تأخري لسببٍ واحد، أنّي خشيت ألا أُوَفّي الرَّجُل حقّه في بيان فضله وشرفه وعلوّ منـــزلته ومكانته بين إخوانه وتاريخه في الدّعوة والجهاد ودوره في التّوحيد والجهاد، ثم في قاعدة الجهاد، وما مَنّ الله عليه وعلى إخوانه بالتبعية بوجوده بينهم.

فمن يتكلم عن هذا الشّهم الكريم، الشّجاع البطل، الأَسَد الهصور، العالم الرّبّاني، العالم العامل، الفقيه الحافظ، التقي النقي، السهل الواضح ثم المعلم المربي، المتمسك بدينه، الحريص على إخوانه، الناصح النصوح، الحيّ المؤدب، الغيور على الدِّيْن والعرض، الجامع لشمل المؤمنين والمُفَرّق لصفّ المنافقين والكافرين.

بالله عليكم من يعدُّ قطرات النّهر؟، فنهرٌ كأبي أنس الشامي حريٌّ بمثله أن يتوقف عند وصفه، ويتأنى قبل أن يخوض فيه، ثم لا بُدّ أن يكون سليم الذّوق لا مرور الحلق حتى يستعذب صفاء مائه وخفّة مذاقه، وكيف لي بهذا وكلماتي يتقطّر الحزن من ثناياها وفؤادي يعتصر ألماً عند ذكره ثم بالحديث عنه، وإن كان ولا بُدّ حتماً فهاكم الرَّجُل وتلك نتفةٌ من سيرته وعلاقتي به وما يمكن أن أقوله عنه وأوّل معرفتي به.

أقولُ أوّل معرفتي بالرَّجل أنّي دخلتُ يوماً أو بدعوة على شيخ الإسلام أبي مصعب الزرقاوي رحمه الله فلفت انتباهي شابّ في الثلاثينات من العمر يجلس على فَرْشَه مُقابلة كأنّه زهرة على بساط أخضر، جميل الصورة، نضر الوجه، ليس به نمش ولا سواد، ناعم الشعر، رائع القسمات، فناداه صاحبي فأقبل إلينا فلمحت البراءة في عينيه ثم تكلم، فتكلم بالفصحى بلا تقطع ولا تكلف بل يمازح ويلاطف في أدبٍ كبير، ثم جلس فاستشاره الشيخ أبو مصعب في عمل عسكري ما، فأشار واقترح بما يستطيع ويعرف ثم صمت عمّا لا يعرف، وتلك والله شيم العلماء، ثم خلوتُ بالشيخ أبي مصعب وسألته عن الرَّجُل، فمدح وزاد في مدحه بما يدلّ على أنّ الرَّجُل وقع من الشيخ موقعه المناسب، ففرحت لأسباب أهمها:

١-أن الشيخ جعل مستشاره من أهل العلم والصدق والنصح.
٢-أن عادة الشيخ لم تتخلف عنه حتى بعدما صار معروفاً مشهوراً، فمنذ كان في أفغانستان كان يُقرّب ويأتي ويذهب مع أحد كبار طلبة العلم، وهذا يدل على فهم الرَّجُل وتحرّيه للشرع في أمره ونهيه، وتقريبه للعلماء، وتلك والله شيم الصالحين.

ثم عدتُ إلى عملي وبعد فترة شاءت الأقدار أن أرجع وأكون في أماكن كثيرة هو فيها، كان أهمها أيام الفلوجة الأولى وبعدها، تلك الغزوة التي سطرّ لها الشيخ باسم (غزوة الأحزاب) وكنت أحب أن يسميها غزوة بدر لأن آثارها كانت كآثار بدر وعدّة أهلها كعدّة أهل بَدْر وحالهم أشبه بهم في كثير من الأشياء.
وقد التقيتُ الشيخ أبي أنس في إحدى المرّات قبل الفلوجة الأولى لّما زرت أحد الأخوة في زوبع وكان عنده الأخ الشهيد (مولود)، كان الجو ممحلاً فسألت عن الحال؟ فقال لي: توبة أن أذهب مع الشيخ أبي أنس، قلت: ولِمَ؟، قال يا رجل كدت أموت رعباً من فرط شجاعة الرّجُل، تخيّل بالأمس هاجم أكثر من أربع سيطرات في نفس الساعة، يخرج من واحدة ثم يهاجم الأخرى وفي كل مرة يأمرني أن أتوقف إلى جانب السيطرة حتى إذا ما توقفنا أمر الجميع بإطلاق النار وهكذا دواليك حتى كدنا نموت جميعاً من الرعب أو نقع في الأسر لكن الله سلّم.
ثم جاءت الفلوجة الأولى وكان للشيخ أبي أنس دور بارز جداً فيها لم يحكه الرجل عن نفسه لما كتب قصتها، لكن أبرز أهم ما قام به:-

١) كان له الدور الكبير والهام في تحفيز الناس وخاصة الأنصار وتبشيرهم بالنصر وحثهم على الصبر والثبات.
٢) كان عمله يسبق قوله، فكان يحفزهم ويتقدم أمامهم فكان يسرع حينما يبطيء الناس.
٣) كان يشكل مع عمر حديد وأبي عزام " رحم الله الجميع " أشبه بمجلس حرب يدير الأزمة ويسد الثغر ويشد العضد.
٤) كان لثقة الأخوة المهاجرين منهم وخاصة الأنصار به عامل هام جداً في أن تسير الأمور على

النحو المطلوب، فمثلاً لما كانت هناك مفاوضات، كنا نقول في كل شيء ما قال أبو أنس في هذا الأمر، هل وافق؟ هل أجازه؟

فما وافق عليه، وافقناه، وما رفضه رفضناه، لثقتنا بعلمه وشجاعته، وربّ قائل يقول وما دخل العلم بالشجاعة؟ فأُجيبه وأقول: نعم كنت مثلك لا أعرف هذا حتى جاءت الفلوجة الأولى.

فحينما كان يشير أبو أنس مثلاً بوقف القتال، كنا نحسب أن الرجل يرى الأصلح ديناً لا جبناً ولا خور، فالجميع يعلم أنه بالنسبة إلى أبي أنس ليس بجبان، كما أن الرجل ناصح حريص فلا يتخذ قراراً إلا بعد أن يشير على شيخه ومن معه – فرحمة الله عليه-.

و مما أذكر جيداً ولا أنساه ما حييت، أنه زارنا يوماً في الجولان وكان قليلاً جداً ما يزورنا نظراً لأن إخوة الجولان كان معظمهم المهاجرين وكان لا يرى حاجه ملحة للمجيء إليهم.

أقول زارنا الشيخ ونحن أحوج إليه من غيرنا في النصح ورفع الهمة وكانت الأمور في أشد ما يكون ضيقاً، فسأل الحاضرين، من يعرف رمز الحزب الجمهوري الأمريكي (أهو الحمار أم الفيل)؟ فقال أحد الحاضرين أضنه الفيل يا شيخ، فالحمار رمز الحزب الديمقراطي، وأيّده آخر، فقال الشيخ: كنت أعلم هذا لكن أردت أن أتأكد إن صَدَقَ ما تقولون فابشروا وأمّلوا، ثم تلا علينا قوله تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)، حتى أتى إلى نهايتها وأخذ يفسرها.

ثم أردف قائلاً: أصبروا يا إخواني فوالله لجمعٌ كجمعِ الكفار في الأحزاب وسوف يفرق الله جمعهم في عدّة كعدّة الأحزاب، شهرٌ أو قريبُ شهر.

ولقد صدق والله الشيخ، فكانت شهر أو قريب من الشهر، حيث استمر الحصار سبعة وعشرين يوماً، فالحمد لله على النعمة. وجاء الدور الأبرز للشيخ بعد المعركة، فالرَّجُل كان يُدْرك أن النصر لابد من قطف ثمرته وعدم تركها للدّجّالين من الحزب اللا إسلامي العراقي والصوفية الغلاة والمشعوذين وغيرهم، فكان لا بد من وضع الأمور في مسارها.

فشكّل وأسّس (مجلس شورى مجاهدي الفلوجة) بالتنسيق وبأمر الشيخ أبي مصعب وحتى لا تذهب الثمرة إلى من جاء بعد المعركة، فكان هذا المجلس تقريباً صمام أمان فيما بعد لكثير من المعضلات.

ثم لعب الشيخ فيما بعد أحداث الفلوجة الأولى الدّور الأهم والأبرز في حياته كلّها، بل والذي أرجو من الله أن يجزيه عليه خير الجزاء.

فلقد بدأ الرَّجُل برصّ الصّف وتأليف القلوب على أبي مصعب وجمع الشمل له فبدأ بالأقرب وهي الفلوجة، فبدأ يطوف على كثير من المجموعات الصغيرة يُفنّد شُبَهَهم وينصحهم ويعضهم حتى جمعهم جميعاً تحت راية التوحيد والجهاد.

ثم بدأ بما حول الفلوجة ثم بغداد فكلما سمع بكتيبة او سرية حسنة العقيدة والسلوك والعمل، جاء إلى أميرها وحاوره ولا يزال به حتى يدخلهم إلى صف التوحيد والجهاد.

وكان من مآثره أن سامراء لم يكن للتوحيد فيها أحد فزارهم وما زال يتردد بين سراياها وكتائبها حتى جعل سامراء كلها تقريباً للتوحيد والجهاد، ثم صارت فيما بعد كالفلوجة أو أشدّ، ولقد ظلّت (الملوية) المأذنة الشهيرة في التاريخ الإسلامي والعراقي خاصة محاطة بعلم التوحيد والجهاد أكثر من ثلاثة أشهر.

ثم بدأ الشيخ الشهيد الحبيب بعد ذلك يتخذ طابعاً عسكرياً أكثر منه غير ذلك، فأَشْهَدُ بالله أنه ما ثارت ثائره قط في الفلوجة إلا وجدته من أول القادمين المتقدمين، يحرض ويقاتل ويفعل كل ما بوسعه فعله ثم رأيته بعد ذلك حاضراً لجميع لجنات التنسيق العسكري التي كانت تتم في الفلوجة وكان له الدور الأبرز بين الأخوة.

وصل الشيخ إلى المكان ثم بدأ القصف وكان الشيخ خارج المنـــزل، ثم فجأة رأى صاروخاً يدمر البيت على أكثر من أربعين أخ وصلوا لتوّهم ولم يفرقوا إلى أماكنهم بعد، فصرخ الشيخ بأعلى صوته في الأخ الذي خارج المنـــزل والذين بعد لم ينـــزلوا من السيارة يأمرهم بالإسراع في الانتشار والابتعاد عن المكان لإنه يعرف كما يعرف جميع أهل الفلوجة والذين اكتووا بنيران القصف الجوّي الأعمى أن الطائرات الامريكية في الغالب تقصف المكان أكثر من مرة في نفس الوقت، لكن شجاعة وشهامة ومروءة الشيخ لم تتخلف عنه حتى في أحلك المواقف وأشد الظروف ولو هتف به الموت من كل مكان، حيث سمع أنيناً يأتي من بعيد من بين الأنقاض فأسرع إلى إخراج ما يمكن إخراجه من بين الأنقاض حتى وصل إلى أخ يأنُّ بقوة وسط ركام البيت بينما

تبعه الأخ الشهيد أبو عبد الله سعد والذي حكى لي القصة وكان أبو عبد الله في طرف البيت يحاول إنقاذ أخ آخر وفي تلك اللحظة جاء الصاروخ الثاني وليرمي بأبي عبد الله مسافة بعيدة لكن دون أذى يذكر والحمد لله.

بينما دفنَ الصّاروخ عالماً ربانيّاً بين أشلاء إخوانه ولتختلط الدماء بهم، اختلطت الأرواح زماناً طويلاً وليتعانق الجميع عظاماً وأرواحاً في جنات عدنٍ عند مليك مقتدر، نحسبهم والله حسيبهم.

بقي أن أذكر بعض الأشياء على عجل في سيرة الرَّجُل الإمام، أنه كان لا ينسى قط ويفتر عن ذكر الله فكان الإستغفار سمة أبي أنس، فلا تكاد تسمعه إلا وهو يقول: " أستغفر الله"، حتى إنها صارت عادة أظنه لو حاول أن يمنعها ما قدر كما أني أظن أن ذلك كان هو سرّ نضارة وجه أبي أنس الشامي رحمه الله.

كما أنه كان خالص الودّ والحبّ لزوجه " أم أنس "، فما كان ينساها قط ولو في أحلك المواقف. وأذكر أنّنا في أثناء أحداث الفلوجة الأولى وفي لحظة من لحظات الضيق والشدة نظر إليّ مبتسماً قائلاً: "وداعاً أمّ أنس".

ثم أُحبّ أن أُنَوّه أن الشيخ سافر إلى البوسنة والهرسك قائماً بأمر الله في الدعوة إلى العقيدة الصحيحة والتي لأجلها أسّس مع مجموعة من إخوانه مركز الإمام البخاري بعد رجوعه من الهرسك.

كما أن الرّجل أبتلي في ذات الله حيث اعتقل عام (٢٠٠٣م) لإنتقاده نظام الطاغية عينُ أمريكا " عبد الله " وبعد الإفراج عنه أسرع إلى أرض العزة والجهاد بلاد الرافدين.

بقي أن أقول أن أذكر أن اسم الشيخ الحقيقي هو (عمر يوسف جمعه)، وهو فلسطيني الأصل، ومن مواليد عام ١٩٦٩م ومتزوج وله من الأولاد " أنس ومالك " وبُنَيّة هي الأكبر " ميمونة ".

فرحمةُ الله على ميمون السّيرة، ميمون العمل، ميمون المقام عند الله " نحسبه كذلك ولا نزكّي على الله أحداً ". أسأل الله أن يُخلفنا فيه خيراً، فوالله ما جاء بعده مثله، والله المستعان وعليه التّكلان.

وهذه مرثيّة الشيخ حامد العلي في الشهيد أبي أنس الشامي رحمه الله.

حل البكاء وأظلمت أيامي ... هذا كلام الله ليس كلامي
أبا أنس هذي مصارع عزّة ... لموت سابقنا الإمام الشامي
جئت العراق لتبتغي إكرامها ... فلقد تشرفت صفعها المترامي
ولقد تباهت أرضها بجهادك ... من مثلهُ من قائد مقدام
ولقد تطاولت العراق لكي ترى ... هل في العراق أحق بالإكرام
فتراجع الطرف وشيكاً قائلاً ... هذا الإمام رأيت في أحلامي
فلقد رأيت العزّ يبغي معلما ... يزهو عليه فجال في الأعلام
فبدا أبو أنس بطلعة وجهه ... فتبشبش العز وصاح أمامي
ما هذه الأنوار عند فراتنا ... قال الفرات أما رأيت حسامي
أو ما رأيت المجد في أوطاننا ... يحكي عليك حكاية الأيام
فيقص ذكر مجاهد متفقه ... ليث يصول صيالة الضرغام
فتعانق المجد وعز فراتنا ... وتحوّلا تاجا برأس الشامي
كم في ترابك يا عراق شهادة ... شهدت له بشهادة الإعظام
أبا أنس هل قد رحلت وما ... ودّعت من أخاك في الإسلام
لا بل أنت حيٌ في العلا ... أنت الشهيد بمحكم الأحكام

وكتبه:

أبو اسماعيل المهاجر